المدن ، مكافأة النصر ، وبما أن الحديث الآن عن الغنائم والاهتمام مركز عليها ( تصدرها الفضة والذهب والبسة القتال الصالحة ) كان على رأس الهدايا الثمينة التي عرضها مارسليون ( أسود ودببة وخيول ، وكلاب الصيد ، وبغال محملة بالذهب ) ثمنا لابرام معاهدة سلام ، بيد أنه كان على رأس الكنوز جميعا شكة سلاح جاء وصفها بأنها حوت ( خوذات محلاة بالذهب ، وسرج مطلي بالذهب وقربوسة من الفضة وسيوف رصع قراب كل منها بالجواهر وهكذا دواليك )، وبصرف النظر عن الاشارات الى هذا كله ، ان النغمة العامة المنتشرة في شعر الملحمة مع سلوك جميع الشخصيات ، اتسمت بالفروسية ، واللامبالاة ، وتحكم بجميع المشاعر الأعمال العسكرية ، فما من واحد أضاع الوقت ـ مثلما فعل مقاتلوا هومر دوما ـ بالتوقف في وسط المعركة لينتزع جثة واحد من أعدائه ويجمع سلبه ، ويشعر المرء أنه وقف خلف بساطة المعركة ووحشيتها شعور دقيق بالتمسك باللياقة .

## ٦ ـ أحكام المعركة :

وقال الفارس الابيض للفارس الأحمر :« طبعا إنك ستراعي أحكام المعركة » وقالت أليس تحدث نفسها وهي ترقب القتال :« لعلك تتذكرين أن أحد الأحكام هو اذا ماضرب فارس فارسا آخر يسقطه عن ظهر حصانه ، واذا أخطأه عليه أن يؤرجح نفسه من جانب الى آخر »، وكان حظ الفارس في القرن الحادي عشر اثناء المعركة سيئا ، وقيل له :« اذا أردت البقاء حيا ، من أهم الأمور التي عليك مراعاتها هي أن تبقى فرسك واقفا على رجلية ، وأن تبقى أنت نفسك على ظهره ، فإذا ماألقيت أرضا ، أو سقطت ستواجه مخاطر عظيمة ، فاما ستجر الى الموت جرا ، أو ستفقد رقبتك على أيدي أي رجل مسلح يصدف أن يراك » وصمم السرج في العصور الوسطى على أساس أن يكون له أحزمة

قوية ، وأن يكون وسطه عبارة عن مقعد مبطن أمامه قربوس مرتفع وخلفه واحد آخر ، من أجل ابقاء الفارس ثابتا في مكانه ، ويختلف هذا السرج عن سرج السباق الحديث الذي يمكن الفارس من الانزلاق بسهولة من على ظهر حصانه اذا ماكبا على الأرض ، وذكر الشاعر بشكل واضح ( الأبيات ٢٠٣١ ـ ٢٠٣٤ ) أنه عندما فقد رولاند وعيه وهو في سرجه على ظهر حصانه نتيجة الألم ونزف دمه « كان حتما سيسقط ، لكنه بقي منتصبا عليه بفضل الأحزمة » وقيل للفارس :« اذا مافتك طعنة رمح الى الخلف ، ستجد نفسك مسندوا بقربوس السرج الخلفي ، واذا ماجعلتك ضربة شديدة بالسيف تنبطح على رقبة الفرس ، أمسك بقربوس السرج الأمامي ، ذلك أن انزياحك عن سرج فرسك هو الطامة الكبرى ، لأنه سيقودك حتما للسقوط على الأرض ، ووقع هذا الحادث مرتين في ملحمة رولاند ، لكن كان ذلك في كلتا الحالتين أثناء مبارزة فردية ، ولحسن الحظ انزلق الفارسان في وقت واحد ، لهذا امتلكا الوقت والمكان ليعودا الى وضعهما السابق ومن ثم متابعة النزال .

وعلى كل حال يمكننا أن نستخرج بعض أحكام ـ أو لنقل بعض أسس ـ المعركة التي اتسمت بها المبارزات في الملحمة ، ولابد هنا من ترك بعض المساحة لأسلوب الشعر ، لكن الخطوط العامة مرجح أنها قامت على الممارسات الفعلية ، وكان القتال الذي يأخذ مداه الكامل يسير نظريا على ستة مراحل :

١ ـ التحدي : عندما يلتقي المتبارزان وجها لوجه ، ويسبق المنازلة تهديدات واهانات ( انظر على سبيل المثال الأبيات : ١٢٣٨ ـ ١٢٤٢ )

٢ ـ المبارزة بالرماح :

استخدم المتبارزون في ملحمة رولاند الرمح وفق ماعرف بالطريقة الحديثة ، وهي أن يجري تثبيت الرمح تحت الذراع الأيمن بكل

قوة ، وأن يسدد في الوقت نفسه نحو صدر الخصم أو خوذته ، وكان الهدف أما خرق صدره أو اقتلاعه من على سرجه بفعل وزن الرمح وسرعة اندفاع الحصان ، ونجد على سجادة بايو التي تعود الى فترة ملحمة رولاند نفسها تقريبا ، الفرسان يستخدمون الطريقتين الحديثة والقديمة معا ، فقد صور بعض الفرسان وهم يحملون رماحهم فوق رؤوسهم وبذلك استخدموا الرمح كسلاح رمي ، ويلاحظ أن الرماح التي استخدمت للرمي كانت قناة كل منها بسيطة بدون زينة ، بينما زينت التي استخدمت في الطريقة الحديثة بعلم مثلث الشكل صغير أو بريشة أثبتت تحت السنان ، تماما مثلما جاء الوصف في رولاند ( على سبيل المثال الأبيات : ١٢٢٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٧٦ ، الخ )

٣ ـ المبارزة بالسيف :

أ ـ على ظهور الخيل :

اذا انقصفت الرماح بدون نتيجة حاسمة ، ولم يتوفر تابع للتزويد برماح جديدة ، يشهر المتبارزان سيفيهما ويتابعان القتال ، وكان السلاح في تلك الآونة سلاحا للاستخدام بيد واحدة ، لكن لم يكن أمرا شاذا أن يؤخذ باليدين لتوجيه ضربات قاسية جدا ، ووقتها يرخي زمام فرسه ، ويترك فرسه المدرب يقوم بواجبه ، واستخدم حد السيف ولم يعتمد على رأسه ، وتوجب توجيه الضربات على رأس الخصم ، وإذا ما تفادى الرأس الضربة ، أو صدتها الخوذة قد تنزل الى الكتف فتحدث جرحا مميتا يعطل الذراع الأيمن ، أو كما حدث عندما تمكن رولاند من قطع يد مارسليون اليمنى عند مفصلها ، فعطله عن متابعة القتال ( البيتان : ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ )

ب ـ المبارزة بالسيف على الأقدام :

اذا ماترجل المتبارزان وتمكنا من الوقوف على أقدامهما يتابعان القتال بالسيف مترجلين وفق طريقة الطعن والضرب نفسها .

٤ ـ الدعوة المتبادلة للاستسلام :

غالبا مايحدث في المبارزة الفردية الطويلة ، كالتي قامت بين شارلمان وباليغانت ( الأبيات ٣٥٦٤ ـ ٣٦٢٤ ) أو بالاحتكام الرسمي بوساطة محنة القتال كما حدث بين ثيري وبينابل ( الأبيات ٣٨٧٣ ـ ٣٩٣٠ ) ، وقفة لاسترداد الأنفاس ، ويحق في تلك اللحظة أن يدعو كل مبارز الآخر الى الاستسلام حسب شروط ، واذا مارفض كلاهما يتابعان القتال حتى يموت أحدهما .

٥ ـ ضربة الموت :

عندما يفقد أحد المتبارزين سلاحه أو يتعطل عن متابعة القتال ، أما أن يدعوه المنتصر الى الاستسلام والأسر ، أو يوجه اليه ضربة الموت ، وأعلن في رولاند ( البيت ١٨٨٦ ) وجوب القتل وعدم أخذ أسرى .

٦ ـ مباهاة المنتصر وافتخاره :

بعد قتلك لعدوك ، ستتولى تشجيع نفسك ورجالك بكيل السباب والشتائم الى الجسد الميت ، وصحيح أن هذه العادة لاتتماشى كليا مع صورة الفروسية لدى الانكليز ، لكنها كانت جزءا من الاجراءات الصحيحة في جميع الملاحم المبكرة ، فعند هومر غالبا ماجاءت المباهاة على شاكلة التحدي وعرضت في خطاب طويل محكم الصنعة ، وكقاعدة يتكون الخطاب في رولاند من بيت او ما يشبه ذلك ، وقد لايتجاوز القول :« خذ ذلك ، انت يا ... » وهذا مسموح به حتى في المعايير المعاصرة في مثل هذه المبارزات الحامية ( انظر على سبيل المثال الأبيات ١٢٣٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٧ ، ١٢٩٦ ) .

وغني عن القول أنه اعتبر عملا خيانيا وليس من أخلاق الفروسية مهاجمة انسان من خلفه ، ولم يدع الشاعر أولفر رفيق رولاند ، والبطل الذي لانظير يموت في قتال مباشر ، بل جعله يقتل بضربة قذرة من هذا النوع ( البيت ١٤٩٥ )

٧ ـ التنشئة والمرافقة :

كان هناك فوق وأعلى من رباط التابعية العام ايضا الرابط الخاص الذي ربط رجلا بسيد تربى معه ونشأ ، أو الذي ربط سيدا بمرافقه ، وقضت العادات القديمة بإرسال ولد من أسرة كريمة ليتربى وينشأ ويرعى في بيت سيد رفيع المقام ، ويتلقى هناك مايحتاجه من تعليم وثقافة ، ويتعلم الأخلاق الجيدة ويدرب على استخدام السلاح ، والرياضة والفروسية ، واذا حدث وتربى صبيان هكذا ونشأ معا في الجد واللعب ، سيغدوان صديقان من نوع خاص أو لنقل رفيقين ، وسيستمر هذا التقارب مع تنافس الأصدقاء وسيتطور مع تقدم الحياة ، وكان التعاطف بين الرفاق ، أو بين السيد والفتى الذي تربى ونشأ في بيته قوية جدا ، وغالبا ماغطت علاقات القرابة بالدم ،وهكذا نسمع عن « العزاب الشباب » في بيت شارلمان « الذين دعاهم بأبنائه »، ونرى كيف مضي تفكير رولاند ساعة موته فقط نحو « الرجال في صفه » بل أيضا نحو « سيده شارلمان الذي رعاه وربـاه منذ أن كان صبيا » ، وبشكل خاص نحو « رفيقه » أولفر ، وسنلاحظ ايضا أن كل واحد من الاتراب الاثني عشر كان له « رفيقه » ولذلك غالبا وردت الأسماء بشكل مزدوج : غيرين وغيرير ، ايفز وايفوز ، أوثون وبيرنغر ، أذسيس وساذسون يبدو ان الزوج المتبقي جيرارد أوف روسيلون وانغلر أوف بوردو ازدواجا معا من خلال المرافقة ، ولهذا لم يرد ذكرهما بشكل خاص ، ولعل ذلك ايضا بسبب أن جيرارد عرض بمثابة رجل عجوز

٨ ـ الخيول والسيوف :

لعله ليس من الضروري كثيرا اظهار أهمية الخيول الجيدة والسيوف الماضية ولا الالحاح على العواطف تجاههم مع مراعاة هذه الممتلكات الثمينة والعناية بها ، وهذا ليس بغريب فعليهما اعتمدت سمعة الرجل المقاتل وحياته ، وكان فقدان أحدهما معناه كارثة حقيقية وأن نرى وقوع أحدهما بيد العدو فذلك يسبب العار

والشعور بالاسى ، ومنحت السيوف والخيول المتميزة أسماء تشرفها وترفع من قدرها ، ونلاحظ أن الأمير المسلم باليفانت قد منح سيفه اسما حتى لايبدو بحال من الأحوال أقل منزلة من سيف شارلمان وسيمر بنا في نص رولاند اسماء العديد من السيوف المسيحية والاسلامية .